

ابستمولوجيا العقائد

د / محمد يحيى اوي جامعة الجزائر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة

ابستمولوجيا العقائد عنوان يبدو غريبا للوهلة الأولى بحكم تنافر موضوع ومنهج كل من الابستمولوجيا والعقيدة. فالأولى هي دراسة نقدية للمعرفة العلمية بينما الثانية معرفة تتصف باليقين المطلق والتقديس الذي لا يقبل النقد ولا حتى الدراسة. باعتبار أن العقيدة مبنية على معرفة مصدرها إلهي سماوي، وما هو إلهي منزّه عن الأخطاء والشوائب ومن ثم لا يقبل المراجعة ولا يقبل إعادة تأسيس. بالرجوع إلى الحركة التاريخية لهذين المجالين من المعرفة نجد أن :

1- الدراسة الابستمولوجية سواء في جانبها النقدي أو التكويني فإنها بحث في بنية المعرفة العلمية وفي تشكلاتها وفي منظوماتها.

بنية المعرفة العلمية تتحدد بكل الآليات المعرفية التي تصنع العلم وهذه الآليات هي المحيط المعرفي الذي يشكل العلم. فالمعرفة العلمية إنتاج بشري قام به علماء كانت لهم أوضاعهم الاجتماعية وظروفهم الاقتصادية وكان لهم حقلهم السياسي وميولهم الايديولوجي. فالعالم لا ينتج العلم وهو مقطوع الصلة بالمجتمع بل إن عمله من صميم الإنتاج الاجتماعي، ومن ثم فهو في علاقة جدلية بين عمله في المجتمع وعمل المجتمع فيه.

وبالعودة إلى تاريخ العلم نجد التفسير السوسيولوجي للمعرفة العلمية ففي الفكر الشرقي القديم ظهرت أولى المعارف الكيميائية (التحنيط) وظهرت

أولى المعارف الرياضية الهندسية لكن لم تظهر عندهم علوم أخرى مثل العلوم التجريدية كالمنطق والفلسفة والرياضيات المجردة لماذا؟

لأن غياب المنطق في الفكر الشرقي القديم يعود إلى طبيعة الأوضاع السياسية التي كانت قائمة آنذاك فالحكم المطلق الذي كان سائدا عندهم يجعل الحاكم مشرعا، لا مسؤولا، لا يحتاج إلى إقناع غيره. ومن ثمة لا حاجة اجتماعية ولا سياسية إلى وجود معرفة تقن التفكير وتلزم صاحبه التقيد به. لكن كانت الحاجة ماسة إلى ظهور معارف تحفظ الحاكم من الزوال بحكم أنه إله. فظهرت هنا المعارف اللازمة لبناء الأهرامات وهي مقابر الأسرة الحاكمة وظهرت المعارف الكيميائية لتخنيط جثث الأسرة الحاكمة.

أما ظهور المنطق عند اليونان فقد ارتبط بظهور الديمقراطية. حيث يضطر الإنسان الحر إلى إقناع إنسان آخر حر كذلك. فضرورة الحوار أفرزت ضرورة تقنين التفكير وضرورة الزام الغير بقبول النتائج التي تترتب عن المقدمات، فظهر المنطق لسد حاجة سياسية.

إذن العلم ظاهرة اجتماعية سياسية يجري عليها ما يجري على غيرها من الظواهر الاجتماعية ومن ثمة فالدراسة الاستيمولوجية تقتضي ضرورة وضع المعرفة في سياقها الاجتماعي والتاريخي، الذي ظهرت فيه والذي تشكلت داخله، ولا يمكن الوقوف على حقيقة المعرفة العلمية خارج هذه الأطر وهذه القواعد.

2- إذا كان هذا هو حال الاستيمولوجيا فإن العقيدة لا تختلف عنها من حيث هي معرفة لها شروط تكوينها وأدوات تشكيلها، ولها حقلها الذي نضجت فيه. لأن العقيدة وإن كانت معرفة مرتبطة بالإله إلا أنها ترتبط أولا بالإنسان فهو المعتقد الذي " آمن " و " سلم " بدعوة معرفية ورفعها إلى درجة اليقين ومن ثمة التقديس. فكيف تشكل المقدس في المعرفة الدينية؟

سنحاول اقتحام المقدس الذي تجذر في المخيال الاجتماعي وسنقتصر على أنموذج العقيدة الإسلامية التي اكتست فيها المعرفة الدينية قداسة ما بعدها قداسة حتى أصبحت جداراً حديدياً تسقط أمامه كل أشكال المعارف الأخرى سواء معارف علمية أو معارف قادمة من ثقافات أخرى.

إن العقيدة مرتبطة في وجودها بالعقل، رغم أنها تظهر مغايرة له، حيث يوجد العقل توجد العقيدة وحيث يغيب تغيب ولم يحدث في تاريخ العقائد أن نزلت رسالة سماوية على كائنات غير عاقلة أو كلف كائن غير عاقل (حيوان، نبات، جماد) بتبليغ رسالة إلى أفراد جنسه. ومادام الأمر كذلك فإن العقيدة هي خطاب العقل للعقل، لكن من مستويات مختلفة. فالوحي الذي هو أساس العقيدة⁽¹⁾ مبني على وجود علاقة بين أطراف ثلاثة شاركت في إنتاج الوحي هذه الأطراف هي: الله - جبريل - محمد الرسول. كل طرف ساهم في صناعة الوحي بحكم أنه كائن عاقل. إما أمر أو مبلغ أو متلقي. فالله كان بإمكانه وبحكم قدرته المطلقة أن يوحى إلى رسوله مباشرة، دون استخدام الوساطة (جبريل). أو كان بإمكانه أن يوحى إلى عباده دون وساطات (جبريل - الرسول) لكنه فضل الوساطة فكلف جبريل الذي كلف الرسول² بمهمة التبليغ. ومهمة التبليغ تقتضي اللغة، واللغة صناعة بشرية، بحكم أن الإنسان هو الذي يحدد مضامين الكلمات، وهو الذي يعطي التجسيد المادي للمعاني والعبارات والإشارات التي يتم بها التواصل. وكل هذا يقتضي نشاط العقل سواء في تأسيس الوحي أو في تجسيده المادي عندما استحال نصاً مكتوباً بلغة لها كلمات ومعاني وعبارات لا تفهم إلا في طبيعة السياق الذي ترد فيه، ولا تدرك دلالاتها إلا بفعل البناء الذهني لكاتبها أو لقارئها.

إذن فهم العقيدة وإدراك حقيقتها يتطلب منا معرفة الآليات الذهنية والأدوات الفكرية والسياقات المعرفية التي حولت الوحي إلى نص. والتي حولت

النص المؤسس إلى ثقافة ثورية على المعطى القائم، وحولته فيما بعد إلى نص مقدس. يمنع التفكير فيه ويقمع التفكير حوله ويرفض حتى الاجتهاد فيه.

العقيدة أساسها الوحي، وهذا الأخير لا يستطيع أن يخرج عن الأطر المعرفية التي استدعت ظهوره كما لا يستطيع أن يخرج عن نمط الحياة التي كان يعيشها الإنسان الذي ظهر في زمانه هذا الوحي. كما لا يستطيع أن يمضي الإنسان بغير ما كان يشتهي ذلك الإنسان في ذلك الزمان.

في العقيدة الإسلامية يوعد المؤمن بجنان عدن، نعيمها حور العين وأنهار الخمر والولدان المخلدون، وهو نعيم كان يشتهي الإنسان العربي الذي كان يعيش محيطا جغرافيا يتميز بالتصحر والقحط. فأقصى ما كان يتمناه هذا العربي هو الاخضرار وحياة الترف والبذخ كي يخرج من ضيق العيش وضنك المعاش، بلغة ابن خلدون، فلم يكن يحلم ركوب الطائرات أو المحطات الفضائية أو زيارة الكواكب الأخرى، ولذلك لم يوعد بها.

من هنا فالوحي يتناسب دائما مع مستوى الحياة الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية التي يعيشها الإنسان الموعود. ومن ثم يتناسب مع مستوى تفكير الإنسان ومع مستوى نشاطه النفسي والذهني وإدراكه العقلي ولا يتعداه أبدا. وعليه فالوحي بنية مركبة من مجموع العناصر المذكورة سابقا. بها يعرف وبها يتحدد.

إذن بما أن للوحي بنية وبما أن البنية المعرفية ظاهرة اجتماعية - كما سبق وأن ذكرنا في البداية - كغيرها من الظواهر فلا يمكن الوقوف على حقيقتها إلا بإخضاعها للدراسة العلمية وفق المناهج التي أفرزتها آخر التطورات التي حصلت في العلوم الحديثة والمعاصرة. وخاصة ما ارتبط منها بإشكالية اليقين في الاستدلال العلمي، الذي كان موضوع مجموع الدراسات الاستيمولوجية المعاصرة في ميدان العلوم التجريبية والرياضية والتي أفرزت نتيجة مفادها أن الصدق في النتائج العلمية يكون دائما مرهونا بسلسلة الاختبارات التي

أجريت عليه ولا يمكن أن تتعداها ومن ثم فصدق المعرفة العلمية متوقف على صمود هذه المعرفة أو تلك أمام الاختبارات التي لا تمنح اليقين المطلق ولكن أقصى ما تستطيع أن تمده هو الصدق المؤقت الذي يقبل المراجعة باستمرار³.

كما أفرزت تعددا في المناهج وتنوعا في الاختبارات العلمية وزالت هيمنة المنهج الواحد الذي ساد لعقود طويلة في ميدان البحث العلمي. وبهذا الثراء المنهجي أصبح بالإمكان دراسة الموضوع الواحد بمناهج متعددة بل أصبح بالإمكان توظيف مناهج العلوم الدقيقة في العلوم الإنسانية كتوظيف المناهج الرياضية في دراسة إشكاليات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، واستخدام مناهج البيولوجيا في دراسة إشكاليات علم الاقتصاد أو استخدام مناهج الفيزيولوجيا والكيمياء العضوية في دراسة إشكاليات السيكلوجيا.

وأفرزت كذلك هذه التطورات إمكانية الدراسة العلمية للموضوعات التي كانت تستعصى على العلماء إخضاعها للبحث العلمي مثل قضايا الدين وما يحتويه من عقائد ومستويات في الإدراك والمعارف.

نحاول في هذا العمل أن نسلط بعض الضوء على إشكالية العقائد وعلاقتها بقضايا البحث الاستيمولوجي ومن أجل ذلك نطلق من بعض القضايا الأولية التالية:

- الدين في كل أشكاله ومختلف مستوياته هو معرفة حيث أن الإيمان هو اعتقاد (معرفة) قائم في ذهن صاحبه. وهذا الاعتقاد (وهاته المعرفة) مادامت كذلك فهي تحتاج إلى دراسة كغيرها من المعارف من هنا تبدأ الاستيمولوجيا في اقتحام حقل المعرفة الدينية.

أهم خاصية في المعرفة الدينية هي المقدس بحيث أن المتدين يعتقد أن معرفته تتميز عن غيرها بكونها صادرة من كائن غير معرض للخطأ أو الزلل وما يأتي من المعصوم فهو يقين ثابت وحتى نبين هذا النوع من المعرفة ونحدد

وظيفته نستعين بمناهج العلوم الدقيقة والإنسانية والاجتماعية في دراسة النصوص المؤسسة للبناءات الذهنية والآليات المعرفية التي تشكل اليقين المقدس.

- الدراسات العلمية المعاصرة في ميدان علم النفس التكويني وعلم النفس التربوي تثبت (في حدود نتائجها) أن العقل معطى تاريخي يتكون وينمو ويتطور وفق العلاقة الجدلية بمحيطه ومن ثمة فهو في الوقت الذي يتكون بفعل تأثير المحيط يدخل هو في حد ذاته في تكوين هذا المحيط الذي هو مجموع المعارف والثقافة والأطر المشكلة للعقل والمتشكلة به.

إذن التطور الذهني والعقلي يكون عن طريق الآخر المختلف...مع الآخر الذي يجادلنا ويعرض علينا أفكاره وطموحاته ومبادئه فتتفاعل الأفكار والتصورات فيصير في أذهاننا مكانا للآخر ويصير لنا مكان في ذهن الآخر. وفي ظل هذا التفاعل تغيب كل أشكال الإقصاء والتعصب والتطرف فيتمكن الفرد من بناء ذهن متفتح.

إذا غاب الآخر في أذهاننا أو غبنا في أذهان الآخر تتشكل الأحادية والتطرف والتعصب وهي حالات تؤدي حتما الى الإقصاء وإلغاء الآخر.

- التطرف في الدلالة الاستيمولوجية هو اليقين المعرفي الحاصل في ذهن صاحبه بحكم انطلاق هذا الأخير من معارف ومبادئ يعتقد أنها يقينية وصادقة صدقا مطلقا، لا يتسرب إليها الشك. ومن ثم فهو يحارب من أجلها، ويتعب من أجل إعلانها، يموت من أجلها، ويقتل من أجل الدفاع عنها. ولذلك فكل من يخالفه في هذه المبادئ والتصورات يعد في نظره خروجا عن الصواب وتزييفا للحقيقة. فاليقين لا يوجد إلا في ما هو راسخ في ذهنه وحاضر في وجدانه. مستبعدا بذلك كل إمكانية الاختلاف والمغايرة.

لكن ما هو مصدر هذا اليقين؟

تجمع كل الخطابات الدينية على اختلافها ظاهريا واتفاقها منهجيا على أن مصدر المعرفة هو الله والله هو صاحب العلم المطلق الذي يعلم ما يجهر

وما يخفى. والذي لا يصدر عنه الخطأ أو الزلل أو كذب. والله قد اختار رسوله الذي اصطفاه وأرسله بشيرا ونذيرا لهداية البشر، ومن ثم فالحقيقة كل الحقيقة هي الوقوف عند ما قاله الله لرسوله. وما قاله الله لرسوله قد حدده وبينه الرسول لأصحابه وهؤلاء بلغوه إلى بقية المسلمين.

إذن في نظر هذا الخطاب كل خروج عن هذا الإطار هو خروج عن الحقيقة، ومن ثم فالسعادة واليقين يكمنان في إتباع هذا الدين كما حدده الأولون ورسمه الأتباع. والمنكرون لهذا الدين والمخالفون له هم على ضلال توصل أمامهم باب السعادة الأبدية ومصيرهم جهنم وبئس المصير.

ومن هذا التصور يقسم هؤلاء البشرية إلى قسمين: "كفار" و"مسلمون"، دار الحرب ودار السلام بل حتى داخل دار السلام هناك حرب بين السني والشيعة والعلماني، بل هي الحرب حتى بين السني الموالي للسلطة وبين السني المعارض لها، وبين الشيعة في السلطة وبين الشيعة في المعارضة. والغريب أن كل منهم يجد في النصوص المقدسة مبررات مواقف ونباة فرقة. فكل يحتكم إليها في إضفاء الشرعية الدينية.

فكيف تنتج النصوص الواحدة الفرق المتناقضة؟

كيف يشرب المتصارعون من منابع معرفية واحدة ويتقاتلون فيما بينهم؟

كيف تكون الطروحات مختلفة والمرجعيات واحدة⁽¹⁴⁾؟

لماذا تختلف الفرق وتتعدد المذاهب وهي تقر أن مصادرها المعرفية واحدة ووحدتها المرجعية واحدة ونظامها المعرفي واحد؟

بالعودة إلى المسار التاريخي لاختلاف المسلمين وتشعب فرقهم ومذاهبهم وتعدد اتجاهاتهم، نجد أن الانشقاق كان بدوافع سياسية، ارتبطت بإشكالية الإمامة التي أسالت الكثير من الحبر ومن الدماء. حيث يقول الشهرستاني: "ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان"⁵ وهي إشكالية سياسية أخذت طابعا دينيا لإضفاء

مشروعية التوجه السياسي والاختيار الشخصي الذي كان يفرضه التوقع مع هذا الصحابي ضد ذاك أو ذاك ضد هذا⁶.

ومما زاد في عمق الاختلاف هو اتساع الخطاب القرآني نفسه وتعدد معانيه وكثرة وجود الدلالة فيه. ومن هنا تباينت التفسيرات وتعددت التأويلات وتنوعت القراءات فأفرز هذا الاختلاف والتباين جوا فكريا خصبا. أنتج حضارة راقية سادت قرونا طويلة بفعل، العملية الفكرية التي مارسها المسلمون الأوائل في حواراتهم مع النص القرآني من أجل استنطاقه وفي حواراتهم مع بعضهم البعض من أجل محاولة اقناع كل طرف للآخر.

إن اختلاف المسلمين أمر طبيعي.. فمادامت مواقفهم السياسية مختلفة تكون قراءاتهم للنص الواحد مختلفة حتما. فقراءة الإنسان للنصوص تختلف مهما كان نوع النص وهي تختلف من قارئ إلى آخر وعند القارئ الواحد من مرحلة إلى أخرى. وبالتالي فهي قول حول النص تشارك في صنعه كل الخلفيات المعرفية والأطر الایدیولوجية فتتحول بعد ذلك إلى كيان فكري يزحزح النص الأصلي ويحل محله. ويتموضع البشري مكان الإلهي.

إن النص المقدس كائن فكري أبكم لا ينطق عن نفسه أبدا، وإنما يحتاج دائما إلى الإنسان⁷ سواء في تأسيسه أو في قراءته كما أنه خال من الفاعلية والإبداع فهو جسد دون روح. والإنسان هو الذي يشحنه بالطاقة الإنتاجية بما يستخرجه من فهم وتأويلات تشكل في مجموعها ما يعرف بالهرمينوطيقا (Herméneutique).

إن التفسير والتأويل اللذان يمارسهما الإنسان في استنطاقه للنص، لا يعني التوصل إلى حقيقته التي يعتقد البعض أنها قطعية الثبوت والدلالة، وإنما هي عملية خلق لهذه الحقيقة يمارسها القارئ في تفاعله مع موضوع القراءة. وبالتالي لا توجد قراءة صحيحة وقراءة خاطئة، قراءة موضوعية وقراءة ذاتية. كل قراءة هي منتجة لنسق من الأفكار والمعارف تتم وفق تصورات معرفية

وأرضيات وقواعد فكرية. لا يحق لقراءة أن تلغي قراءة أخرى. كما لا يحق لنسق فكري أن يلغي نسقا آخر.

لكن هذا لا يعني غياب قاعدة في المفاضلة بين التفسير والتأويلات ولا أصبحت كل قراءة صحيحة وكل قراءة خاطئة.

إن معيار المفاضلة في هذا المجال من المعرفة يتحدد بقدرة النسق على اقتراح الحلول للإشكاليات التي يواجهها الفكر. في هذا المجال أو ذاك. ويقدر ما يتمكن النسق من تجاوز عقبات الأسئلة التي تطرح عليه ويتمكن من الانفلات من محاولات تكذيبه ويقدر ما يصمد أمام مواجهة المستجدات المعرفية بقدر ما يثبت قدرته على الحياة والاستمرار.

وعلى العكس من ذلك عندما تدعي قراءة ما بلغها اليقين وتعتقد أنها وقفت على كنه الحقيقة وما سواها إلا نكران وجحود، وعندما تتصور هذه القراءة أنها تملك النص وحدها ولها حق الدفاع عنه دون غيرها تكون هنا قد سقطت في بئر الجهل الذي يكبلها بالمفاهيم نفسها التي أنتجتها ولا يسمح لها بالخروج.

فادعاء قدسية النص هو في حقيقة الأمر سطو على النص من أجل السيطرة عليه واحتكاره. وبالتالي تقدس نفسها بتقديسها للنص. وعندما تقع قراءة ما في هاته الحفرة تكون قد أغلقت على نفسها أبواب التجديد ويصبح خطابها اجترارا يستهلك ما أنتج سابقا. يعادي كل جديد ويحكم عليه بالكفر والزندقة.

هذه هي الأرضية الذهنية والحقل المعرفي الذي يكون الخطاب الدغمائي الذي يسعى جاهدا إلى إلغاء كل أنواع الاختلاف وأشكال التسامح. ويسعى إلى إسقاط كل أشكال العدوانية على المعتقدات الأخرى.

هكذا يصبح التطرف سلوكا عصبيا يعكس بنية نفسية راسخة في أعماق المعتقد وفي كل بنائه الذهني والنفسي. ومن ثم فهو يحتاج إلى مقارنة سيكولوجية وابستمولوجية لفك رموزه وبيان طبيعته وتفكيك مكوناته.

البنية العقدية مغلقة لا تسمح بأي حفر أركيولوجي أو أنتروبولوجي لمعتقداتها ومنطلقاتها ومن ثم لا تراجع نفسها ولا تسمح بنقد معطياتها بذلك تستمر في أخطائها، ترفض الاختلاف وتكرس التطرف. ونظامها الاستدلالي يقوم على أدوات معرفية تؤسس التعصب وتغذي التطرف. نتيجة ارتباطها بنسق من القوالب النمطية الصنمية التي لا يتم التفكير إلا من داخلها ولا تنتج إلا نفسها. هذه هي أحادية التفكير التي تطبع الدغمائية في كل أشكالها وجميع مستوياتها.

إذا كان هذا هو حال التفكير المغلق الذي يطبع الثقافة السلفية فهل يمكن الخروج منه . هل يمكن إعادة فتحه وإعادة بنائه من جديد؟ .

بالرجوع إلى أصول العقائد نجد أن كل الأديان والشرائع تنطلق في تصوراتها وفي دعوها من ثنائية الإله / الإنسان وباختلاف العلاقة بين الإله والإنسان كما تحددها هذه الشرائع تختلف الأديان وتتوسع. فالغاية القصوى لكل دين، هي تحديد ماهية الإله المعبود والذي " يفرض " على الإنسان شكل ونوع الطاعة. وبإيمان الإنسان بهذه الفرائض الإلهية يتشكل الدين ويتأسس . وينتشر بقدر ما يزيد عدد الأفراد الذين يؤمنون بهذه الفرائض والمعتقدات .

مكانة الإنسان في الأديان بصورة عامة والإسلام بصورة خاصة هي جوهر العقيدة وهي ركيزتها الأساسية لأن الإنسان هو الممارس لفعل العبادة وهو المحدد لها، فهو الوسيلة والغاية.

هو الوسيلة لأن به تتم العبادة .وهو غاية العبادة بحكم أن الإنسان يعبد الله والله في العقيدة الإسلامية لا يتجسد ماديا في الوجود باعتباره روحا وعقلا مطلقا متعال عن الوجود المادي. ولكنه يعطي الإنابة للإنسان ويجعله خليفة،

فهو ظل الله في الأرض وخليفته " إني جاعل في الأرض خليفة ⁽¹⁾⁸ ، " إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ⁹ .

فيصبح هذا الأخير هو صورة الله في الأرض وبالتالي الإنسان يعبد الله وفي الوقت نفسه يمثل الله في الأرض وهكذا نجد أن العقيدة الإسلامية في جوهرها تجعل الإنسان عنصرا محورا في العقيدة. فهو الفاعل والمفعول لأجله. ومن ثمة معرفة الله تقتضي معرفة الإنسان فهو ظل الله في الأرض وخليفته

إذا غاب الإنسان غاب تصور الإله بدليل أن اختلاف الشعوب في ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم هو اختلاف في عقائدهم، بل أن تصور الإله قد يختلف في العقيدة الواحدة وذلك باختلاف المراحل الزمنية المختلفة وقد يكون الاختلاف في المرحلة الزمنية الواحدة وفي العقيدة الواحدة باختلاف الخلفيات الإيديولوجية والسياسية التي تؤطر وتغذي وتنتج التصورات العقيدية ⁽¹⁾¹⁰ .

فالإنسان في الأديان هو الغاية التي تسعى إليها الشرائع والأحكام والقوانين الدينية . فهي تطلب روحه من أجل التعالي بها في سماء التجريد من أجل تخليصه من شوائب الفريضة وتقريبه قدر المستطاع من نور العقل الكامل ومن النظام المطلق.

من هنا تأتي وظيفة الدين في المجتمع حيث يتكفل الدين باقتحام المجال الروحي للإنسان ويعمل على تهذيبه، وتسهيل تنظيمه، وتوجيه سلوكه، وتطويع غرائزه، ومن ثمة تحقيق سعادته التي هي مطلب كل الأديان.

فالذات الإلهية بحكم أنها كذلك، أي بحكم الكمال الذي تتصف به، وبحكم التنزيه الذي تتمتع به، وبحكم القدرة الخارقة التي تملكها، قضت ضرورة خلق الإنسان كي تظهر عظمتها وتتجلى قدرتها.

الكامل لا يعرف إلا بالناقص والعظيم لا يعرف إلا بالضعيف، سواء كان هذا على مستوى الوجود أو على مستوى التصور. فنحن لا نتصور الذات

الكاملة إلا إذا كان بإمكاننا تصور الذات الناقصة. والعكس صحيح. إذن وجود الله محايث لوجود الإنسان لا وجود لهذا دون ذاك.

وهكذا يصير الإنسان هو الجزء الأساس في المنظومة الإلهية بغيابه تتزعزع ركائزها وبوجوده تستقيم ويصير الإله "إنساناً" كاملاً صفت روحه وتجردت من كل لواحقها المادية وتعالى عقله في سماء المطلق ومن ثمة فما هو إنسان هو بشكل من الأشكال، "إله" وما هو إله هو، بشكل من الأشكال "إنسان". إذا أدركت هذا أدركت ذاك وإذا أبصرت هذا أبصرت ذاك¹¹.

إذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن تكون هناك عبادة على حساب الإنسان، لا يمكن أن تكون هناك عبادة فيها إساءة للإنسان أو إذلال له. لا يمكن أن تكون هناك عبادة تترتب عليها أشكال انتهاك حرمة الإنسان أو إزهاق روحه وانتهاك حقوقه.

كل عبادة يترتب عليها تدني موقعية الإنسان أو يترتب عليها التعدي على كرامته تدخل صاحبها في تناقض خالص مع ذاته ومع إلهه، الذي جسده في الأرض وخصه بخاصية الذات الإلهية العاقلة ورفعته إلى مستوى الكرامة دون سواه. فإذا كان الله بجلال قدره كرم الإنسان "وقد كرمنا بني آدم"⁽¹²⁾ فكيف يسمح الإنسان لنفسه أن يسيئ لأخيه الإنسان أو يعتدي على كرامته أو يقلل من قيمته.

هذا هو في اعتقادنا المجال الحقيقي للدين لأنه نشاط روحاني يربط بين ذات دنيا وذات عليا. عبد / رب وما سوى هذا من مجموع القوانين والأحكام والأوامر والنواهي والمواظب والفرائض إلا اجتهادات بشرية سُنت وشُرعت عند قراءة نصوص قديمة في مراحل تاريخية ماضية أدت دورها التاريخي وأتمت وظيفتها. أما اليوم فالحاجة تقتضي إعادة تأسيس.